في الذكرى الثالثة لرحيل الاديب الشاب نور الدين محمد سعيد

● نورالدين محمد سعيد ، قاص شاب تركنا وهو في ربيع العمر وفي أوائل حياته الأدبية الغنية بالأنتاج والمشحونة بالنشاط الدائم . نشر في الصحف والمجلات العربية والكردية عديداً من القصص والتحقيقات والمقالات ، كما ونشر ترجمة لنماذج مختلفة من الأدب الكردي المعاصر .

● في طريقه الى بغداد عائداً من أربيل ومروراً بمسكنه في كركوك كان يحمل في حقيبته مجموعة متناثرة من الأوراق . . قصص وقصائد كردية وعربية ، مؤلفة ومترجمة ، وكتب رسمية عن تعينه في جامعة صلاح الدين لكونه حاملاً شهادة الماجستير ، أصطدمت السيارة التي حملته بسيارة أخرى ووافاه الأجل أثر الحادث !

● – نورالدين محمد سعيد

– ولد عام ١٩٥٥ في مدينة كركوك :

– أكمل مراحله الدراسية الثلاث في كركوك .

– تخرج من جامعة بغداد – كلية الأداب/قسم الأجتماع عام ١٩٧٩ .

– حصل على شهادة الماجستير عن أطروحته حول الحياة الأجتماعية في (قوشتبه – أربيل) في الكلية نفسها .

– توفي أثر حادث سيارة في ١٩٨٣/٧/٢٢ .

● نشرت له وزارة الثقافة والاعلام مجموعة قصصية بعنوان : (وللهم هوامش أيضاً) عام ١٩٨١ ، وأثارت المجموعة في حينها نقاشات عديدة في الصحف والمجلات المحلية والعربية خارج القطر . وأشترك في النقاش عدد من الأدباء أمثال القاص كمال لطيف سالم والناقد مؤيد البحش والدكتور علي جواد الطاهر والقاص عبدالستار البيضاني وغيرهم .

● وقد علمنا بأن الجزء الثاني من قصص (وللهم هوامش أيضاً) موجود لدى المؤسسة العربية للدراسات والنشر منتظراً الطبع ، وكراس صغير بعنوان (معوقات التنمية في أقطار العالم الثالث) لدى دار الجاحظ ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة . نأمل أن نرى المسودتين مطبوعتين .

● مع أنه من عائلة كردية كادحة الا أنه كان يكتب بالعربية بالدرجة الأولى لكونها لغة دراسته ومصدر ثقافته . عندما زرت مسكنه المتواضع في كركوك ، واطلعت على ما خلفه من كتب

وأوراق وكتابات ، فقد حصلت على كثير من نتاجاته في مجالات ثقافية مختلفة من كتابات وتراجم وتعليقات . وسبق وأن نشرت في عدد يوم ١٩٨٤/١٠/١٧من جريدة العراق مقالاً باللغة الكردية وأشرت الى عديد من نتاجاته غير المنشورة . ونقدم هنا قصة غير منشورة له بعنوان (موت الرجل بائع الحلوى) . وهذه القصة واقعية في الأصل ، وهي جانب عن قصة حياة الأديب الكردي الراحل (نجم الدين الملاّ) الذي مات ميتة مأساوية في السليمانية في بداية الستينات . وأتذكر بالضبط في أحدى جلساتي مع الصديق الراحل (نور الدين) أنه قال لي : (كتبت قصة عن نجم الدين الملاّ) . وها نقدمها للقارئ الكريم مساهمة في ذكرى رحيله الثالثة ، أملين أن ننشر ما بحوزتنا من أثاره قادماً :

موت الرجل بائع الحلوى

قصة : نورالدين محمد سعيد

تسللتْ أشعة الشمس الساطعة منسابة بهدوء حين فتح الباب الخشبي القديم ، أغمض الرجلُ عينيه فيما يُشبه العشو تَقيةً من الضياء الساطع ، كانت حزمة شعاع الشمس تبعث دفئاً مستمراً ، آلاف من ذرات الغبار تتراقص في فضاء الحزمة الشسيع ، مَطَّ ظهره شاقولياً ثم تثاءب كاشفاً عن أسنان غير منضودة ، منخورة يرتسم عليها السواد المبقّعُ بالبياض كمعدن صدئ متقشر . .

تناول إبريق الشاي الأثري ، وحين إنشغل بإشعال طباخه النفطي العتيق ، ملأ الغاز المنبعثُ منخريه وسقف الغرفة ، وصار فمه وبقاً مجّاً . أشعلَ سيكارة «لَفّ» ، تمدد على ظهره نافثاً الدخان الرصاصي الذي كان يخرج من ثنايا أسنانه بشكل جد منسجم ، بينما كان أبريق الشاي يبعث أزيزاً متقطعاً .

* *

ثمة خشبة قديمة جعل منها رفاً مثبتاً بالحائط ، المسوّد عليها كتب أوراقها مصفرّة ودواة قديمة بجانبها قلم ريشٍ صلب دقيق الطرف وأوراق مبعثرة . . . غرفته هي شيئان معاً ، فهي دكان صغير ، ومأوى لرجل متعبٍ «ناسها لا يعرفون الاّ أنفسهم» كما قالها بنفسه مرة لأمام الجامع الصغير في البلدة . .

وفي ركن قصي من الغرفة كانت القطة – رفيقته الوحيدة . . نائمة غافية .

* *

– أن تعيش وحيداً ، تلك هي التعاسة يامُلاّ ، أن لا تجد من يحنو عليك أو يبتسمُ بوجهك صباحاً فإنَّ الشمس ذاتها ، بضوئها الباهر ، تصبح عيناً مفقودة لنسر ميت ! ! تصور أنني والقطة ألفنا ذلك المكان الموحش الذي يؤوينا معاً ، أجلس أحياناً على حصيرتي المسوّدة أقرأ قصص الأنبياء وأشعار الصوفية بينما القطة تنظف مخاليها مما عَلِقَ بها خلال تنبيشها عن الطعام بين أكوام الزبل . . أهي حياة إذن هذه التي نحياها يا إمام البلدة ؟ ! ؟

– إصبرْ . . وما صبرك الاّ بالله . . الدنيا حظوظ ولنْ يصيبك الاّ ما قسمهُ لك الباري ! !

* *

والصبر مُرٌّ لا ينفعُ غليلاً . الصبرُ أو داج متبدجة للحزانى ، الصبر يا «مُلاّ» موت بطيء وكناية عن عجز وسقم في الروح . . جَرَّبَ مرة أن يرحل دون أن يخبر أحداً :

– ومنْ ذا يهتم لرحيلي ؟ !

قالها لجاره – الوحيد الذي يفتح له صدراً – وأضاف بمرارة :

– أعوام وأعوام ، والناس هنا تنكرني ، فقط الأطفال هم الذين يسألون عني أو يشترون قطع الحلوى صباحاً وهم يبسمون بوجهي . . لا يا «سليمان» سأرحل ، ثمة ما أخسره وأن كنتُ خاسراً على الدوام فيما مضى من عمري . . لكن المدنَ كلها صدّته ، والمسارب كلها لفظته ، عادَ القهقرى ، وهو الذي أناف عمره على الخمسين خريفاً ، يستجدي ذُبالةَ ألفةٍ عاشها بين ظهراني بلدة عاقة تيبسُ في عيون أبنائها ماء الحياة ، وتسلبُ

أرواحهم ذلك التوق المتألق للحياة . .

عادَ وفي قلبه بقايا أمل خائب ، ضوءه لايني يخفت لجفاء البلدة و . .

– الناس يا «سليمان» إثنان بين ساعٍ لأحضان إمرأة وشرّه لا يعرف الركون قطّ . . .

أشاحَ جاره الفلاح بوجهه ظاناً أنَّ به مَسّاً ، أو على الأرجح ظاناً أنَّ المسَّ إزداد بعقلهِ أشتباكاً .

* *

تمدد الرجل قرب الدكة الخشبية في دكانه المفتوح في ذلك الصباح الرائق ، وهو يحسُّ آلاماً مُبرحة في جنبيه :

«اللعنة على الكلى ، قال لي حكيم البلدة : إن كليتيك منخورتان مرملتان» .

جاءته إمرأة تقود طفلاً ، أستوى قائماً ، نظر اليها بشراهة وضاع في موسيقى كلامها :

– أعطهِ الحلوى يا عم !

ظل يحدق في وجهها . إبتسمت هي ، فقد ألِفَتْ نسوة الحي نظراته الهيمى تلك ، تأمل قدّها الملفوف بتلك العباءة المفلطحة ، كان الطفل يلعق ما بيديه على كتف أمه ، بينما نظرات الرجل تلتهمها إلتهاماً ، نقل عيناً دامعة الى بيته – الدكان ، ورمى بحديدة قديمة الباب الجانبي بقوة إرتعبت الطيور على إثرها وأبتعد دجاج الجيران مقوقئاً بأتجاه الفناء وأخذ طفل – أفزعه الصوت – يبكي ، أما القطة فبدت غير مهتمة لفعلة صاحبتها ، تقدم منها ليركلها ، ماءت بخوف ، فركل حائط الطين المتبن ثم عاد الى دكته دافناً رأسه بين يديه الشائختين المعروقتين . . .

* *

الأرض وتركها ، أرهقه العملُ المأجور المضنى ، ثم تقدمت به السن ، فأضحى بين عشية وضحاها طريداً يبحث عن لقمة ، فكان الدكان ، وصار يستلُّ خبزه المُرّ «من فكيّ أسد» كما قالها مرة لجاره «سليمان» الفلاح الذي لا تزال بجسمه بقايا ألق وأوار :

– عليك أنْ تعيشها إذن يا رجل . . هي الدنيا كدّ وتعب وأن الأخرة هي دار القرار . .

فرَكَ عينيه ، أفاقَ على صوت طفل يطلب الحلوى ، رفع الطفل وحضنه وأخذت دموعه تترى نازلة تصيبُ شعر الطفل بالبلل الزكي ، ناوله قطعة ثم . أخرى ودسَّ نقوده في جيبه الصغير ، أبتسمَ الطفل وعينه متألقة من الفرح ثم أنصرف يجرُّ خطى ثقيلة بأتجاه البيوت الطينية ذات الأبواب الخشبية الضخمة .

* *

قدَّم بقايا طعامه للقطة في إنائها المعدني العتيد ، صارت القطة تتشمم الطعام وأخذت تأكل منه برفق من أطرافها ، ثم أنصرفت معرضة عنه ، عبّت الماء لحساً بلسانها من حفرة تجمع فيها ماء آسن . .

شعر الرجل بخمول ، أسدل الصفيح المستطيل على واجهة دكانه ، فرش حصيرته متمدداً عليها ، واضعاً رأسه على صُرّة فيها ملابس ممزقة ، أشعل سيكارته «اللف» ، فاجأه السعال ، أحمرت عيناه ، جحظتا ، تراجعت القطة رافعة ظلفها بأتجاهه وهي تموء بشكل متلاحق ، إستند هو الى الجدار ضاغطاً صدره بيده الضامرتين . .

ترنح ممتداً على جنبه الأيمن ثم أنقلب على ظهره ، أنفاسه لاهثة وبقايا أعشاش العناكب تهتز في السقف متمايلة بفعل الريح المنفلت اليها من شقوق تتخلل السقف المدعم بجذوع الأشجار الضخمة . .

تتراقص خيوط سوداء طويلة مهتزة في مكانها بقلب السقف ، تحشرج الهواء في صدره ، بحَّ السعالُ المخنوق في قفصه فصار أشبه بالفحيح ، القطة المرعوبة تضربُ رأسها بزاوية الغرفة وتموء عالياً . .

همدتْ حركته وتراخت يداه منطرحتين الى الأسفل ، ظلت عيناه محدقتين بالسقف المسود ، خصلات شعره هي الوحيدة

التي تتحرك في مكانها متمايلة بفعل الريح التي كانت تصفر في الخارج محتدة ، مخترقة الشقوق في أسفل الباب الخشبي – المرصع بدوائر من الحديد – عنوة . .

* * *

خفّت حركة الريح صباح اليوم التالي ، أنسابَ الفلاحون المتعبون بأتجاه الحقول الشسيعة المحيطة بالبلدة ، والنساء صرن يتجهن فرادى وجماعات الى البئر القريبة ، يمتحن الماء بأسطال خشبية . . وفي الحي كان السكون سائداً بشكل غريب ، بدَت إمرأة تكلمُ جارة لها وهي متلفعة بعباءة قديمة بأنتظار طفلها الذي قصد دكان الرجل بائع الحلوى ، أسترقت .

– وهي لا تزال تحادث جارتها – نظرة إلى أبنها ، وجدته ينقر الغطاء الصفيحي دون رد ، صاحت بأبنها :

– تعال . . لعله سافر بأتجاه الريح .

قهقهت جارتها ضاحكة ، وهي تغمز قالت :

– أو لعله تزوج هذا الملعون ! !

وعلت كركراتهما من جديد ممزقة سكون ذلك الصباح الجديد .

* * *

أشاد الفلاح «سليمان» – وهو يحادث صاحبه – بصوت المؤذن وجمال نبراته ، بينما كان خدينه – المتلفع بيشماغ مرقط إعتاد أن يعتمره أيام الجمع تزيناً – يشيد بإمام الجامع الجديد غير الملحاح ، الوقور ، كما قال . .

«الجمعة» هي المناسبة الوحيدة التي تجمع الشتيتين من أهل البلدة ، الفلاحين منهم والأغنياء ، الباعة بالمفرّق والموسرون . . ينصتُ الجميع للأمام وتذرف أعينهم دموعاً مدراراً ، أما النساء فتنصت في بيوتها أو على سطوح المنازل لصوت الأمام الجهوري الذي كان ينطلق كالسيف عبر مكبرة الصوت ، فتنتحب النساء ويذرفن من الدموع أضعافاً مضاعفة . .

* * *

عاطت أحدى النسوة بصوت عالٍ ، إرتد «سليمان» مع صاحبه مبهوتاً ناحية المرأة المولومة ، جاء سعياً اليها يستطلعان جلية الأمر ، وأنساب من سمع صياحها من الرجال والنساء نحوها أيضاً :

– ما بك يا أمرأة . . أنطقي . .

أخذت توضح نائحة بصوت مرتبك :

– شممت رائحة كريهة من الدكان منذ قليل ، فطرقت الباب على بائع الحلوى ، غير أنه لم يفتح . . لم أره منذ ثلاثة أيام . . أخشى أن . .

وأقتحم الرجال الدكان الخشبي ، لم يكن صعباً قلع الغطاء الصفيحي ، وثبوا الى الداخل ، ماءت القطة وكشرّت عن أنيابها المدماة وتمدد بالقرب منها الرجل بائع الحلوى مفتوح الفم وقد تدبق على زاوية فمه سائل أصفر جعل الذباب والنمل يتنافسان في الوصول اليه ، بدت عيناه الغائرتان فتحتا كهف مظلم بينما النمل رسم خطاً أسود دقيقاً بين فمه وعينيه والذباب المطنطن قد تجمع أكواماً ، كانت ساقه اليسرى مبتورة ، منخورة . صاحت النسوة من جديد وامتلأت الحارة بنساء مولولات تدريجياً ، وسليمان يصيح بالرجال :

– الحقوا القطة أنها مسعورة ، لقد أكلت ساق بائع الحلوى .

وأخذ الرجال يتبعون القطة وقد اقتلع بعضهم خشباً غليظة ، صارت القطة تعدو مذعورة علّها تدرء عنها أخطار جسام .

* * *

لفّوا جسمه بما تيسر من أقمشة متقادمة :

– مسكين لا أحد له ! !

– سندفنه الليلة .

ليلتها حين دفنوا بائع الحلوى ، كانت الريح تفحُّ كأفعى . والمؤذن الجديد يقرأ على روحه سورة من القرآن ، بينما كان الأطفال متحلقين حول المكان يعلو الذهول وجوههم الصغيرة .

بغداد

في ١٩٨٢/٧/٥